المحور الأول: تراث القرن التاسع الهجري(15م) في الجزائر(المغرب الأوسط)

المحاضرة الأولى– المؤثرات في الحياة الثقافية(العوامل السلبية).

أولا) الاضطرابات السياسية:

كانت بلاد المغرب الإسلامي خلال فترة القرن التاسع الهجري (15م) تحت نفوذ ثلاث دول، وهي: الدولة الحفصية (تونس) والدولة الزيانية بالجزائر وقاعدتها تلمسان، والدولة المرينية بالمغرب الأقصى [1]، مع العلم أن سلطات هذه الدول كانت مشتتة ومحدودة الإمكانات المادية والدفاعية، وغير قادرة على إحكام السيطرة على قواعدها والمحافظة على وحدتها، ضعيفة أمام التحديات الخارجية، أما في الداخل فقد خرج عن نطاقها العديد من المجموعات لتستقل بمناطقها تحت قيادة قبائل قوية تمحورت في غالب الأحيان حول طريقة دينية، تجسدت في زاوية ولي صالح[2].

كما أن هذه الدول الثلاث، كانت في صراع عسكري دائم مع بعضها البعض، وكان المغرب الأوسط (الجزائر) مسرحا لها أكثر من تونس والمغرب الأقصى، بحكم موقعه الجغرافي، الشيء الذي أضعف السلطات المركزية، خاصة لدى بني زيان، الذين كانوا يسيطرون نظريا على القسم الغربي من الجزائر الحالية، حيث ظلت مملكتهم عرضة لغزوات بني مرين في المغرب الأقصى وبني حفص في تونس[3].

إن هذا الوضع السياسي المتردي جعل المنطقة المغاربية مسرحا للتوسع الأوروبي المسيحي، الذي رفعت مشعله مملكتا البرتغال وإسبانيا، التي اقتسمتا الفضاء

---

[1] نور الدين عبد القادر، **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي** ، الجزائر، دار الحضارة، 2006م، ص.48.

[2] دلندة الأرقش، عبد الحميد الأرقش، جمال بن طاهر، **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر** ، تونس، مركز النشر الجامعي، 2003م، ص.10.

[3] صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي(1514–1830م)**، ط.2، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2007م، ص.07.

المغاربي، الذي تكاثفت فيه مصالحهما [1]، فقد دخلت الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط مرحلة الانحطاط والضعف، وأصبحت لقمة سائغة للأسبان ثم الأتراك[2].

كما كانت هناك مناطق شاسعة في المغرب الأوسط(الجزائر) لا تخضع لسلطة الزيانيين أو الحفصيين أو المرينيين، فقبيلتا(سويد) و(بني عامر) الشهيرتان كانتا تسيطران على معظم سهول ولاية وهران، وكان آل المقراني يتصرفون في القبائل الصغرى(وادي بجاية)، وكانت قاعدة إمارتهم(قلعة بني عباس)، ثم حولت إلى مجانة، والقبائل الكبرى تحت تصرف (آل القاضي)، ومقر إقامتهم (جبل كوكو) [3]، أما العالم الصوفي الشيخ عبد الرحمان الثعالبي، فكان على رأس إمارة الثعالبة بمدينة الجزائر وسهول متيجة يحكم المنطقة حكما ذاتيا [4]، حيث عانى كثيرا من هجمات المسيحيين(الاسبان)[5].

لذلك وجه الثعالبي رسالة [6] إلى أحد علماء زواوة(محمد بن أحمد بن يوسف الكفيف) يدعوه فيها إلى الجهاد ومواجهة بني الأصفر، وهذا إن دّل على شيء، فإنما يدل على أن العلاقة كانت منقطعة بين الثعالبي وبين بني زيان، وأن إمارته (الثعالبة) لم تكن تخضع لهم، فقد كان الزيانيون لا يسيطرون إلا على تلمسان وضواحيها وساحل البحر إلى مقربة من مدينة الجزائر[7].

---

[1] الأرقش وآخرون، **مرجع سابق**، ص.10.

[2] عباد، **مرجع سابق**، ص.10.

[3] أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني** ،ط1، تح وتق: المهدي بوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص.16.

[4] عبد الرزاق قسوم، **عبد الرحمان الثعالبي والتصوف**، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1978م، ص.25.

[5] وليم سبنسر، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تع: عبد القادر زبايدية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980م، ص.31.

[6] ينظر نص الرسالة كاملة عند أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت (لبنان)، ج1، 1990م، ص ص.208- 209.

[7] أحمد توفيق المدني، **حروب الثلاثمائة سنة** بين الجزائر وإسبانيا(1492-17892م)، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1976م، ص ص.93- 95.

ومن خلال دراستنا لرسالة عبد الرحمان الثعالبي في الجهاد نعرف مدى تدهور الأوضاع السياسية في وسط البلاد أيضا، ومنها نعرف أيضا مدى ضعف القادة السياسيين وأهمية ودور العلماء والمرابطين في قيادة العامة في الحروب، ورد غارات الأجانب خصوصا ما تعلّق ببجاية وسهل متيجة وما حوله، ومن الملاحظ أن الثعالبي لم يشر في رسالته إلى أمير أو سلطان، وكان يهيب بالعلماء أن يتحملوا مسؤولياتهم أمام الله والناس، لصد غارات الأجانب، وبني الأصفر كما كان يسميهم[1].

ولقد كان لهذه الاضطرابات السياسية عاقبة وخيمة على الحياة الثقافية، فهاجر بعض العلماء إلى المشرق والمغرب، وربط آخرون منهم مصيرهم ببعض الأمراء، بينما انزوى بعضهم مفضلا حياة عيشة الزهد والهروب من أدران الحياة، وقد خسرت الحياة الثقافية في الجزائر العديد من العلماء، كالعالم أحمد بن يحيى الونشريسي، الذي هاجر إلى فاس لأسباب سياسية، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي الذي هاجر من تلمسان إلى السودان القديم[2].

وهناك عدد آخر من العلماء هاجر إلى المشرق وتوفوا به، أمثال أبي الفضل محمد المشدالي البجائي وأحمد بوعصيدة البجائي، وأحمد بن يونس القسنطيني، وأبي زيان ناصر بن مزني البسكري، وابن صعد التلمساني، بينما اختار علماء آخرون حياة العزلة والتصوف وترك الدنيا لأصحابها والاهتمام بعلوم الآخرة، ونذكر من بينهم عبد الرحمان الثعالبي وتلميذه أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري ومعاصرهما محمد بن يوسف السنوسي[3].

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998م، ج1، ص.43.

[2] نفسه، ص.44.

[3] نفسه، ص.44.

ثانيا– انتشار الطرقية والاعتقادات الخرافية:

إن من أبرز سمات القرن التاسع الهجري هو انتشار الطرقية والاعتقادات الخرافية، إذ تؤكد بعض الأبحاث تدهور وانحطاط حالة التصوف في هذه الفترة، باتجاهه نحو ضروب مختلفة من الطقوس والشكليات، وضعف الطاقة العقلية وانتشار الطرقية والاعتقادات الخرافية بسبب الصراع الحاد، الذي نشأ بين المجتهدين والتقليديين، ولا سيما في تلمسان[1].

ولقد أقبل الشعب إقبالا لم يعرفه من قبل على أمور المجاهدة والكشف، وأصبح ينخرط في الزوايا والربط، ويؤمن بالأولياء وكراماتهم، ويتناقل خرقهم للعادات، وإخبارهم بالمغيبات واحتجابهم عن الأنظار إلى غير ذلك من التصاريف، وهو مأخوذ كأنه قد أصابه مس من الجن، ثم تجده يندفع في زيارة قبور هؤلاء الأولياء وأضرحتهم، ويقيم حلقات الذكر حول قبابهم [2]، ويخبرنا التنبكتي أن العامة في تلمسان، كانوا يتزاحمون على الصوفي عبد الرحمان الهزميري، فيمسحون وجوههم بطرف ثوبه تبركا به[3].

ويعتبر محمد بن يوسف السنوسي وعبد الرحمان الثعالبي من أكبر زهاد وعلماء القرن التاسع، فقد جمع كل منهما بين الإنتاج العلمي والسلوك الصوفي، وانتفع بكل منهما خلق كثير، وكان لهما تأثير كبير على معاصريهما وعلى اللاحقين منهم، ورغم شهرة كليهما ومكانته، فإن كلا منهما كان يحث على العزلة والهروب من الدنيا وعلومها والاهتمام بعلوم الآخرة والتفرغ لها، ويجد دارس حياة كل منهما نموذجا للعالم الزاهد الذي استعمل علمه لا لنقد أحوال الناس المعاشية والتنبيه على نقاط الخطر في

---

[1] بركات، **مرجع سابق**، ج1، ص.107.

[2] نفسه ج1، ص.108م

[3] التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ط1، تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة،منشورات كلية الدعوة، طرابلس(ليبيا)، 1398هـ/ 1989م، ج1.ص.241

المجتمع، بل لدعوة هؤلاء الناس إلى الهروب إلى الآخرة والصبر على ما كانوا يجدونه من ظلم السلطان وسوء الأحوال[1].

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج1، ص.49.